لتَسْقطْ «إمَّا... وإمَّا!»

نعم يا سادة. نحن نَتُوق مثلَ كلّ اللبنانيين إلى التخلُّص من هيمنة المخابرات السورية.

ولكنْ...

كيف هيمنتْ هذه المخابراتُ على حياتنا وهوائنا؟ ألم نساعدْها نحن في شتّى المجالات؟

إذن، علينا أن نتخلّص من أنفسنا أيضًا، أعني من أنفسنا القديمة التي تهلّل للفاتح (كما قال جبران خليل جبران في حديقة النبيّ، لا جبران التويني في النهار) ثم تودّعه بصيْحات الاستنكار، لتهلّلَ لفاتحٍ جديد، وهكذا إلى ما لا نهاية.

تريدون التخلُّصَ من الهيمنة السورية؟

إذنْ، ارمُوا كلَّ الطبقة السياسية الحالية ـ وبعضُها في «المعارضة» اليوم ـ في سلّة المهملات.

ولكنْ...

هذا أيضًا لن يكفي! فنحن لا نريد أن نتخلّص من «السوري» (كما يقول العنصريّون) لنُحلَّ مكانَه وصايةً أميركيةً ـ أوروبيةً بديلة، أو «انتدابًا» من أيّ نوعٍ كان.

ونحن لا نريد أن يكون ثمنَ التخلّص من «السوري» رأسُ السيّد حسن نصر الله (أنكون فعلاً أحرارًا هنا، وقادةُ المقاومة ـ الذين أسْهموا في تحرُّرنا في ٢٥ أيار ٢٠٠٠ ـ أسرى في عسقلان أو غوانتانامو... إلاّ إذا «لحقوا حالَهم» والتحقوا بالرَّكْب «السِّيادي»)؟

ولا نريد أن «تُصاقبَ» حريتُنا الموعودةُ مع ضغوط أميركية ـ إسرائيلية ـ أوروبية على سورية. صحيحٌ أنّنا لا نُؤْمن كثيرًا بنظريات المؤامرة التي تُفْزِعُنا بها أنظمتُنا لتأبيد استعبادنا، ولكنّنا لا نؤمن أيضًا بنظريات «المصادفة» و«المصاقبة» التي يُتْحفنا بها المعارضون اللبنانيون بعد المعارضين الجورجيين والأوكرانيين (والـ...؟). ولا نريدها أصلاً، تلك الحريةَ الموعودةَ، على رؤوس الأسنّة الاستعمارية والانتدابية التي كافحنا ضدّها عقودًا.

لسنا مُغْرمين بلحّود وكرامي وبرّي والفرزلي ووئام وهّاب وسليمان فرنجية وجميل السيّد ورستم غزالة وعدنان عضوم... ولكنّنا لم نكن، ولن نكون، مغرمين بأمين الجميّل وسمير جعجع وميشال عون وجبران تويني وسمير فرنجيّة ووليد عيدو ووليد بكْ! ولم نكن، ولن نكون، مغرمين بلبنانيين على مقاس: حميد كرزاي الأفغاني، وإيّاد علاّوي العراقي، وڤلاديمير پوتين الروسي (تُرى، هل «صاقبتْ» أن قَرَّرَ هذا الأخيرُ زيارةَ إسرائيل قريبًا بعد أن أَحْجم كلُّ الزعماء السوڤيات ـ والروس ـ عن ذلك منذ تأسيس الكيان الصهيوني؟).

إنّنا نريد الحريّةَ والاستقلالَ والسيادةَ يا سادة، ونريدها بكلّ جوارحنا وحُبًّا لأطفالنا ولشهدائنا. ولن يُجْبرنا أحدٌ ـ بحجّة الأولوية القومية والوطنية ـ على التخلّي عن أحلام الكواكبي ورئيف خوري وفرج الله الحلو وكمال جنبلاط. ولكنْ لن يُجْبرنا أحدٌ، في المقابل، على أن نَرْكب «اللحظةَ الدوليةَ المؤاتية» على حساب حزب الله و«حماس» و«الجهاد،» بل وعلى حساب حريّةٍ حقيقيةٍ (للفرد والمجموع، وللقُطْر وللأمّة، وللذّكر كما للأنثى) لمجرّد أن نكون مقبولين عند السيّد الأبيض الذي يَذُوب حرصًا علينا!

نريد الحريةَ لذاتها: لحاضرنا، لمستقبل أولادنا. ولكنّنا نريدها، أيضًا، لكي نستطيع أن نُديرَ معركتَنا ضدّ الاستعمار وضدّ الصهيونية بكفاءةٍ أكبر، وبنًى أصْلب. فسلاحُنا في مواجهة مغتصبي شبعا والجولان وفلسطين والعراق، وفي مواجهة الإملاءات الاقتصادية العولمية، سيكون أمضى حين نكون أكثرَ حريّةً. لكنّ حريّتَنا وحدَها لن تكفي ـ كما يروِّج الليبراليون الجُدُد ـ لتحقيق الاستقلال وتحرير الأرض وردِّ العدوان على أرضنا وشعبنا ومياهنا ومؤسساتنا. بل هي لن تكفي وحدَها لدخول عصر العولمة «الزاهر،» لأنّ شرط هذا الدخول أمةٌ واحدةٌ أو متعاونةٌ فيما بين أقطارها ـ وهو ما يتناوب على إفشاله كلٌّ من النظام الاستبدادي القُطْري العربي والحِلْف الاستعماري ـ الصهيوني.

س. إ.